(٣)

الإيمانُ والعِلْمُ

- الإيمان ، بين الوعي والتخدير
- العلم ، بين الأصالة والادعاء
- «لا أدري» و «الله أعلم»

الإيمان
بين الوعي والتخدير

« فأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما
ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ،
كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ »

(سورة الرعد)

الرائد لا يكذب أهله ،

بالإيمان والعلم نواجه هذه الجولة الحاسمة لمعركتنا مع أعداء البشر ، وطاغوت هذا الزمان .

وبالإيمان والعلم ، نواجه كذلك تحديات عصرنا ، ونناضل في صراع الوجود ومعترك المذاهب والقيم ..

ولن يصح لنا إيمان ولا علم ، ما لم نتدبر منطقهما ونتمثل آفاقهما ، ونستبين على الحقيقة مناط قوتنا بهما وجدواهما علينا .

لكيلا تختل المقاييس والموازين ،

وتضطرب الرؤية ، ويضيع منا الطريق .

• • •

الإيمان عقيدة وتقوى ، ويقظة ووعي وسلوك .

وليس استهواء خلاباً يخدّر عقول العامة وضمائر الجماهير ، بألفاظ ضخمة فقدت دلالتها ومعناها وفاعليتها ، أو عبارات فخمة يلوكها مدعو عصرية ، من باعة الكلمة وتجار القلم .

والإيمان سعي وعمل ، وليس جذبة شطحات هائمة في تيه السراب ، تسقط الأمة في غيبوبة عن الوعي ، وتعطل إدراكها لسنن الكون والحياة ، وتريحها من مكابدة هموم يقظتها وتكاليف وجودها ومسئولية أمانتها وتبعات مصيرها ..

وتتسلط على إدراكها بمثل هذه المخدرات التي راجت فينا باسم التفسير العصري للقرآن :

(أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرق وتختفي على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار ، ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هي الأخرى)

(أفِقْ إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يَعُدْ لك وجود ، واختفت معك كل الظلال التي كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك)

(وكلمة التقوى هي النذير بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها أن تُفَكَّ وتُعاد إلى علبتها) !

• • •

والله في العقيدة الإسلامية له المثل الأعلى :

هو الحق المطلق والخير المحض والكمال الأسمى .

وهو النور والهدى ، والعدل والسلام .

وهو العزة والجلال .

• فالإيمان به تعالى ، إيمان بما نعتقد أنه الحق والخير والعدل والعزة .

ويُلزمنا هذا الإيمان فريضة الجهاد في سبيل «المثل الأعلى» وتكاليف دفع الشر والقبح ، ومقاومة الفساد .

وليس الإيمان بمن له المثل الأعلى ، أن نلوك كلمات طنانة رنانة ، لم يسمع بها قط رسول الله الذي أبلغنا رسالته ، وتلا فينا كلماته تعالى « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »

فيقول قائل من مدعى العصرية والعلم ، إن الله (هو المعماري العظيم ، وسائق القطار الذي تفوق مهارته مهارة جميع السائقين)

ويخلب ألباب الناس بمثل كلامه في : (فورم المعمار القرآني ، وذبذبة حروفه الموسيقية ، والسيمفونية السباعية لسورة الفاتحة ...)

وقد قالت الوثنية القرشية إن هذا القرآن شعر ،

وأنكر القرآن أن يكون شعرا ..

ولا تجوز عليه سبحانه صفات أو خبرات كسبية ، كالموسيقى والمعمار والهندسة ، ومهارة سائق القطار .

وماذا يجدي على إيمان شباب الأمة ، إذا ذكروا بسورة الفاتحة سيمفونيات بيتهوفن وباخ وموزار ، أو ذكروا بكلمات القرآن « صوت الموسيقى » أو وضعوا الخالق جل جلاله ، في المقام الأعلى فوق مهندسي السد العالي وسد اليرموك ، وقواعد اقتحام الفضاء ، وسائقي قطار « اكسبريس الشرق » ومركبات ملاحة الفضاء ؟

« ومن الناس من يشتري لهوَ الحديث ليُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغيرِ علمٍ ويتخذَها هزُوا ، أولئك لهم عذابٌ مهين » —

(لقمان : ٦)

• • •

• والله في العقيدة الإسلامية هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد : لا نعبد إلا إياه ، ولا نشرك به شيئاً .

والإيمان بوحدانية الله المعبود ، يحرر الإنسان من مهانة العبودية لغير الخالق ، ويرفع عنه إصرَها والأغلال .

سواء أكانت هذه العبودية لبشر مثلنا ، ولو كان نبياً رسولا :

« ما كان لِبشرٍ أن يُؤتيَه اللهُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ثم يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي من دون الله »

(آل عمران : ٨٩ ، الأعراف : ١٩٤)

أم كانت العبودية لشيء من الأشياء ،

لئلا نفرط في عزة التوحيد تحت ضغط أي قهر ومحنة ابتلاء ، ولا يُعشي وَهَجُ الوثَن الأصفر بصائرنا وأبصارنا فنذل ونخزى ، ونشتري بشرف الإنسان عرَضاً من الأعراض المادية الزائلة .

ولكيلا نتورط في عبادة الهوى والشهوات :

« أفرأيتَ مَن اتخذ إلهَه هواه وأضله الله على عِلمٍ وختَم على سمعِه وقلبِه وجَعَلَ على بصرِه غشاوةً فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تَذكَّرون »

(الجاثية : ٢٣)

• • •

• والله في العقيدة الإسلامية هو العدل الحق ، وهو الأول والآخر ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو على كل شيء رقيب حسيب ، وله آخرتنا والأولى .

« عالم الغيب لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في السمواتِ

ولا في الأرضِ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين »

(سبأ : ٣)

والايمان به ايمان بمعاقبة اعمالنا وجزاء كسبنا ومسعانا وحتمية الثواب والعقاب ...

وتختل الحياة إذا ارتاب الإنسان في أن من يزرع يحصد ما زرع : ثمراً طيباً أو شوكاً وحنظلاً . وأن كل عملٍ من خير أو شر ، يلقى جزاءه حقاً وعدلا ، « فمن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يره » .

(الزلزلة ٧ : ٨)

« فأمّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ، كذلك يَضربُ اللهُ الأمثال » (الرعد : ١٧)

وكل كلمة يقولها الإنسان ، طيبة أو خبيثة ، يحتمل مسئوليتها وجزاءها حقاً وعدلا :

« ألم تر كيف ضرب اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ، تُؤتي أُكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّتْ من فوق الأرضِ ما لها من قرارٍ »

(ابراهيم ٢٤ : ٢٦)

« إليه يَصعدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الطيبُ يَرفعُه »

(فاطر : ١٠)

وفي (الموطأ) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« بينما رجل يمشي بطريقٍ إذ وجد غُصْنَ شوكٍ على الطريق فأخره ، فشكر الله له وغفر له »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الرجلَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجلَ ليتكلم بالكلمة من سخطِ الله ما كان يَظنُّ أن تبلغ ما بلغتْ ، يكتب الله له بها سخطَه إلى يوم يلقاه » .

• وليس من الإيمان أن نكفر بحتمية الجزاء العدل ، وسنة الابتلاء والحساب ، لنصدق ما يقول مفسر عصري من بدع التأويل لحساب الآخرة ثواباً وعقابا :

(جنة الآخرة هي درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الأرض ولكن مع تفاوتٍ هائل في الرتبة ، مثل التفاوت بين الزمن والأبد ومثل التفاوت بين طعم قطعة سكر وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ)

والنذير للضالين بعذاب الآخرة : (مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك .. وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه)

• وما بمثل هذه السذاجة الغرَّة والطفولة الصبيانية ، تتلقى الإنسانية ختام رسالات الدين ، وقد بلغت رشدها وحملت أمانة الإنسان !

ولا هكذا يبطل الجزاء فليس النذير بعقاب الآخرة سوى تخويف لطفولتنا ، ولن يكون عقاب ، كما لن تأكل الفئران بالطبع أسنان طفلك !

• • •

والسنن الإلهية في العقيدة الإسلامية ، ثابتة مطردة :

« فلن تجدَ لسُنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

(فاطر : ٤٣)

وهذه السنن الثابتة ، هي التي يسير عليها النظام الكوني وتمضي عليها حياة الإنسان والجماعات والأمم ، وتتقرر بها مصايرُهم .

ولا تتعلق مشيئة الله العليا بنقض سننه الثابتة وتعطيلها ،

ستظل الأجرام تسبح في أفلاكها العليا على نسقها المطرد وحسابها الدقيق ، بعد أن اقتحمنا إليها مجاهل الفضاء .

وستظل الشمس والقمر على نظامهما الأبدي ، بعد أن سخرنا الشمس ووصلنا إلى القمر ،

وسيظل قانون السببية على فاعليته وحتميته ، لا تعطله المشيئة العليا ، وهو من سننها الثابتة :

من لم يتق النار وجراثيم المرض ، يتعرض حتماً للحريق والداء ،

ومن لم يتجنب العقرب ، سرَى سُمُّها في كيانه ...

ومن ألقى بنفسه في مهلكة ، فتعرض للقنبلة الذرية أو قنابل النابالم ، هلك أو تشوَّه !

ومن ألقى بنفسه في اليم ، دون أن يعرف السباحة ، أو يجد مَن ينقذه من الغرق ، طوته الأمواج وابتلعه اليم ..

ومن انتظر زرعاً بغير بذر وإنبات ، تعلق بالسراب .

ومن التمس عبيراً من وردة حجب عنها الضوء والهواء ومنعها الري والغذاء وعرَّضها للحشرات والآفات ، فلن يجد سوى هشيم تذروه الرياح بدداً !

والتوكل على الله إيمان بثبات هذه السنن الكونية وحتمية اطرادها ، يمنحنا اليقين بنجاح العمل الصالح ، ويؤنسنا بأن الله معنا في كل مسعى نذكره فيه .

وذكرُ الله ليس تعبئة للأمة في حلقات الذكر ، ولكنه خضوع الإنسان لرقابة خالقه ذي الجلال والإكرام ، وإيمانه بأن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ينصر من ينصر الحق، ويخذل من يسعى لباطل ، ويمحق الزيف، والبهتان .

• وليس من ذكر الله تعطيلُ الأسباب ، والتواكلُ الذي يجحد السنن الكونية ، ويزين للناس أن يناموا بمثل هذا المخدر الذي نفثه فيهم مفسر عصري للقرآن :

(فإذا توكلنا على الله تعالى ، فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع . وهو الذي يسلط الأسباب . هو الذي خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في العروق . هو مناط الهلاك ومناط النجاة ، لا راد لقضائه ولا معقب لأمره . هو الفاعل ونحن أدواته ...)

وبمقتضى هذا الإيمان العصري ، تكون تعبئتنا لحرب العدو تشاغلاً عقيماً ، وتكون خطط الدفاع المدني للوقاية من خطر القنابل ، عبثاً وضلالا ، كما تكون مقاومتنا لدودة القطن وللآفات والسموم والأوبئة ، زيغاً باطلا ...

يكفي لسلامتنا وصحة إيماننا ، أن نتوكل على الله ونكف عن التعبئة لها ، ونغلق المصانع الحربية وكليات الطب والصيدلة ومعامل الأدوية

ومراكز البحوث العلمية ، لا نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض والسم ! الله وحده هو الفاعل ، فلماذا لا ندع له سبحانه أن يبطل فعل القنابل وأسلحة الحرب ، ويدفع عنا غوائل الأوبئة دون وقاية منا أو تطعيم ! !

• ويسوغ في منطق عصرنا الذي فجر الذرة ، وقاس الأبعاد والمسافات بما دون المليمتر ، وأطلق رواد الفضاء والقمر ، وهو يحسب ألف حساب لكل ذرة هواء ونبضة قلب وحركة جهاز ، ويقدر الوقت فيما لا يتعدى جزءاً من ثانية ...

يسوغ في منطق عصرنا هذا ، ما ساغ في منطق الجاهليين من الوثنيين المشركين وعبدة المال من يهود :

« سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء ، كذلك كذَّب الذين من قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتّبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تَخرُصُون »

(الأنعام : ١٤٨)

« وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون »

(الزخرف : ٢٠)

« وإذا قيل لهم أنفقوا مِمّا رزقكم اللهُ قال الذين كفروا أنطعِمُ من لو يشاءُ اللهُ أطعَمَه إن أنتم إلا في ضلالٍ مبين »

(يس : ٤٧)

واللهُ تعالى يقول في ختام رسالاته :

« وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورسولهُ والمؤمنون » .

« وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سَعَى • وأن سعيَه سوف يُرَى • ثم يُجزاه الجزاءَ الأوْفى »

(النجم ٤٠ : ٤٢)

« يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون • كَبُرَ مقتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تَفعلون • إن اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون في سبيلهِ صَفّاً كأنهم بُنْيانٌ مرصوص »

(الصف ٢ : ٤)

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، خطب في الناس فقال فيما قال :

« لا يَقعُدَنَّ أحدُكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .. »

• • •

والإيمان في العقيدة الإسلامية ، التزام أوامره تعالى واجتناب لنواهيه .

والله يأمر بالتوحيد والعدل والإحسان والتقوى والعفة والأمانة والصدق ، والتواصي بالحق والخير ، والتناهي عن الشر والمنكر ، والصبر على تكاليف الجهاد . . .

وينهى سبحانه عن الشرك والبغي والفحشاء ، وأن نسكت على باطل ومنكر ، وأن نفتري على الله كذباً ونحرف كلماته تعالى عن مواضعها ..

وقد وضع الحدود والقصاص لتقويم الخاطئين وهداية المنحرفين الضالين ، وإصلاح المجتمع ووقاية الأمة من شر المفسدين والمجرمين وتأميناً للحياة :

« ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب »
« أنه مَن قتل نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ... »
(المائدة : ٣٢)

وهو وحده ، جل جلاله ، الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

• وليس من الإيمان أن نعطل حدود الله ونأخذ بفتوى عصريٍّ يقول ، مثلا :

(فمن يسرق ويقول — ؟ — صادقاً : تُبْتُ ولن أسرق بعد الآن ، يُعطي لولي الأمر مجالاً لرفع الحدِّ عنه . ومن سرق للجوع أو للحاجة، لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه)

ونمنح صكَّ ثواب وحسنة ، بمقتضى تأويله لآية الغض من البصر :

(لو أخذنا الآية بظاهر حروفها ... فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في زمننا ، زمن الميني جيب والديكولتيه والجابونيز والصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب ، أمر صعب . والسير في شارع عماد الدين أو فؤاد وسليمان باشا ، سيراً مطابقاً لحروف الآية ، هو الأمر العسير ..

(ونحن قد نرى وجهاً فنهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ونقصد الخالق الذي صوَّر ، وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط ، وإنما تكتب لنا حسنة) !!

فمن قال إن تبرج الجاهلية الأولى مباح ؟ إن السير المطابق للشريعة ، ليس فيه أن تخرج المرأة على الناس في زينتها بالميني جيب والديكولتيه والصدر العريان والباروكه الذهب !

والأمر بغض البصر سدّاً لذرائع الفتنة ، لم يكن للمؤمنين دون المؤمنات : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » فهل تكتب للواحدة منهن حسنة بنظرتها إلى رجل من شارع سليمان أو سليم أو سلوم ، وإذا هتفت بالقلب إعجاباً : الله : الذي صوّر وأبدع ؟

نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم يقول :

« لكل دينٍ خلُق ، وخلق الإسلام الحياء »

(الموطأ)

« إن الحياء من الإيمان »

(الموطأ والصحيحان)

وجاءه رجل فقال :

— يا رسول الله ، أستأذن على أمي ؟

فقال : نعم .

قال الرجل : إني معها في البيت ؟

وقال عليه الصلاة والسلام : استأذن عليها .

قال الرجل : إني خادمها .

فقال له المصطفى : « استأذن عليها ، أتُحب أن تراها عريانة ؟ »

(الموطأ)

ويأتي في آخر الزمان ، من يفتي بأن عري النساء في شوارع القاهرة، وسيلة إلى الله وقربى ، فالنظرة إليهن والهتاف بالقلب إعجاباً : الله ! ليست حلالاً فقط ، ولكن تكتب بها حسنة . . .

تأويلاً لآية الأمر بغض البصر !

فليلتمس الشباب « حسنة » من معارض الفتنة وأسواق العري والتبذل !

ولتلتمسها النساء كذلك فهن والرجال في الأمر بغض البصر ، سواء !!

* * *

والإيمان في العقيدة الإسلامية . جهاد في سبيل الله .

ومجمل القول فيه ، ما جاء في (صحيح البخاري) :

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : .

– الرجل يقاتِلُ للمغنم ، والرجلُ يقاتل للذِّكْرِ ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

« من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا : فهو في سبيل الله »

وكلمة الله هي كلمة الحق والخير والعدل والعزة والصدق والأمانة

« ويَمْحُ الله الباطلَ ويُحِقُّ الحق بكلماته » .

« فلا تضربوا لله الأمثالَ »

« للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ولله المثلُ الأعلى : وهو العزيز الحكيم »

صدق الله العظيم

مَنطِقُ العِلْم
بَيْنَ الأَصَالَةِ وَالادِّعَاء

« إنّما يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العُلَماءُ »

(سورة فاطر)

ليس الذي يعوزنا من العلم لمعركة البقاء والمصير ، ومواجهة تحديات عصرِ ما بعد القمر ، أن نجلب كل ما في الدنيـــا من أجهزة وكتب علمية ، وأن نستورد بوسيلة أو بأخرى أحدثَ الأسلحة وعصريات التكنولوجيا ، وندخل في السباق العلمي مع الاتحاد السوفييتي وأمريكا وألمانيا واليابان والصين ...

في وطننا الكبير أقطار يتيح لها ثراؤها أن تستورد ذلك كله ، وتقتني أعجب ما يخطر على البال من أجهزة العصر ،

وتظل مع ذلك وراء عصر العلم ....

إنما يعوزنا حقاً ، عقليةٌ يضبطها منطق علمي ،

بعد أن تعرضت الجماهير في المرحلة التي ساقت إلى الهزيمة ، لذرائع تشويه عقلي فادح ، باسم الإيمان والعلم ..

حتى أوشكت هذه الذرائع ، بما دُقَّ لها من طبول الإعلان وأجراس الدعاية ، أن تحجب عن الناس نور الإيمان الحق ، وأن تنحي عن مراكز التوجيه العقلي للجماهير ، ذوي الأصالة العلماء .

* * *

في دور الحضانة والمدرسة الابتدائية ، تتساهل وزارات التعليم ، تحت ضغط الضرورة ، فتعهد بصغار التلاميذ إلى « معلم فصل » يعلمهم فكَّ الخط ، ويلقنهم معارف بسيطة أولية ، من الحساب ومبادىء العلوم والدين ..

وأرانا نستقبل مرحلة الإيمان والعلم ، بمن يتصورون أن الأمة لا تزال في طور الحضانة والطفولة ، فينتحل إمامةَ الدين والعلم ، كاتبٌ صحفي يؤول لها كتاب دينها بغير علم . ويقدم إليها كل علوم العصر ، مع أسرار الجن والملائكة ، والعلم اليقيني بغيب الآخرة !

* * *

لم يكن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، من علماء البيولوجيا والجيولوجيا والتكنولوجيا . . . .

مبلغ علمه ، نبياً رسولاً ، هو ما تلقاه من كلمات ربه ، وأبلغه للناس في كتاب الإسلام المحكم الموثق ، وفيما تعلم الصحابة في مدرسة النبوة ، من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ،

والقرآن كتاب هدى ودين ، وعقيدة وشريعة ، وقِيَم عليا تظل الإنسانية مستشرفة لها دائبة السعي إليها ،

وهو تكاليف مجاهدة وجهاد ، في سبيل المثل الأعلى .

وهو نور القلوب والبصائر ، والأبصار والأسماع .

والقلب في كل آياته بالقرآن ، ليس العضو العضلي الذي يدرسه طلاب التشريح ويعرفه علماء الحيوان ، لا في الإنسان فحسب ، ولكن في الطيور والماشية والأنعام . . .

القلب في القرآن ، موضع الفقه والوعي والعقل والهدى ، وموطن العقيدة والإيمان والتقوى ، أو الكفر والعمى والإثم والنفاق والقسوة .

يطرد ذلك في كل مواضع استعمال القرآن لكلمة قلب ، مفرداً ومثنى وجمعاً ، ليس فيها على الإطلاق قلب بدلالته العضوية العضلية الذي لا ينفرد به الإنسان ، بل منه ما يباع في حوانيت اللحوم ، ويؤكل بعد طهيه ، في المطاعم والمنازل . . .

والسمع والبصر والنطق ، في كتاب الإسلام : لا تأتي كذلك بدلالتها الفسيولوجية ، ولكنها أجهزة إنسانية ، للإدراك والتمييز والوعي والبيان ..

ومرض القلوب في القرآن ليس مما يكشفه أطباء القلب وأجهزة الضغط والأشعة والرسم ، ولا هو مما يُلتمس علاجه بدواءٍ يخرج من معامل بابر وساندوز ولانت ... أو يستشار فيه جراح مثل الدكتور برنارد .

وإنما المرض فيه فساد وعمى ونفاق وخبث وخيانة :

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمْها فإنه آثم قلبُه »
(البقرة : ٢٨٣)

« يا نساء النبي إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض .. »
(الأحزاب : ٣٢)

« فإنها لا تَعمَى الأبصارُ ولكنْ تعمَى القلوبُ التي في الصدور »
(الحج : ٤٦)

« وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه اشمأزتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة » .
(الزمر : ٤٥)

« فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة .. »
(آل عمران : ٧)

« إذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ غرَّ هؤلاءِ دينهُم »
(الأنفال : ٤٩)

« وليقول الذين في قلوبهم مَرَضٌ والكافرون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلاً . »
(المدثر : ٣١)

• • •

وكذلك الصمم والبكم والعمى ، لا يُراد بها في القرآن تعطلُ وظيفتها العضوية الحسية ، وإنما المراد تعطل وظيفتها الإنسانية ، بالغفلة والجهل والسكوت على باطل ومنكر :

« أفأنت تُسمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولّوا مُدبرين »
(الروم : ٥٢)

« إن شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون »
(الأنفال : ٢٢)

« لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعيُنٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون »
(الأعراف : ١٧٩)

ولم تأت الأمعاء في القرآن ، إلا في النذير لأصحاب النار : « وسُقُوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم »

كما لم تأت الحناجر إلا بدلالة بيانية مجازية ، تصرفها عن أصل استعمالها العضوي ، فلا علاقة لها بتشريح ولا طب أو جراحة :

آية الأحزاب ١٠ في شدة الحرب :

« وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ »

وآية غافر ١٨ في النذير بيوم الآزفة :

« إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين » .

أما المخ والرئة والغُدد والشرايين والأعصاب ، والأضلاع والمفاصل ... فليست من معجم ألفاظ القرآن ، على الإطلاق ..

• وينفي القرآن الموتَ عمن قُتِلوا في سبيل الله :

« ولا تَقولوا لمن يُقتَلُ في سبيل الله أموات بل أحياءٌ ولكنْ لا تشعرون »

(البقرة : ١٥٤)

« ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون »

(آل عمران : ١٦٩)

• ويثبت الموت لمن تعطل وعيُه وضل عن الهدى :

« إنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصمَّ الدعاء »

(النمل : ٨٠)

« إن اللهَ يُسمع مَن يشاء وما أنت بمُسمعٍ من في القبور »

(فاطر : ٢٢)

• • •

• والأعداد في القرآن لا تأتي بدلالتها الرقمية الحسابية ، إلا في آيات التشريع والأحكام والأخبارِ ،

وتأتي في سائر الآيات بدلالة بيانية مجازية ، لاصلة لها بأعداد الحساب :

« استغفرْ لهم أوْ لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »

(التوبة ٨٠)

« ليلةُ القدر خير من ألف شهر »

ولو أنّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كلمات ربي »

(لقمان : ٢٧)

• وآيات الفَلَك في القرآن تلفت الناس إلى شواهد القدرة الإلهية وعجيب سننها الثابتة في النظام الكوني المحكم ،

وليست من مثل ما يشتغل علماء المراصد وقواعد إطلاق ساليوت ولوناخود وأبولو وسيوز ومارينر ...

• وتوشك الآيات القرآنية في خلق الإنسان ، أن تكون موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى ، على إمكان النشأة الأخرى ، على ما مضى بيانه في مبحث « جدل في البعث » بالكتاب الأول .

• • •

فماذا عسانا أن نصنع ، لنرسخ الإيمان في ضمائر الشباب وعقولهم ، ممن يدرسون علوم العصر ويدخلون المشرحة والمعمل والمصنع ، ويتابعون جهود علماء الفضاء ورحلات القمر !

هل نأتيهم بقرآن غير هذا الذي نزل على نبي أمي في بيئة بدوية ؟

أو نضحك على عقولهم ببدع من التأويلات تقدم لهم من القرآن كل علوم الدنيا وعصريات التكنولوجيا !؟

أبناء الجيل ليسوا من البلاهة والغفلة والسذاجة ، بحيث يجوز عليهم أن يقول لهم قائل إننا عرفنا الطائرات النفاثة ، إذ عدنا برب الفلق من « شر النفاثات في العقد » واهتدينا إلى أسرار الذرة بـ « مثقال ذرة » !

بل هم الذين يضحكون لسذاجة ما يقرأون في تأويل عصري لآية القمر في سورة يس ، (أن العرجون القديم تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيه ولا ماء) وأن الخبر عن سد ذي القرنين في آية الكهف .

(لم يكن إلا سدّ الجهل ، عزل الصين عن العالم ، حتى إذا جاء اليوم الموعود وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين هدموا السد) فتقوم الساعة ! !

وأن هبوط آدم من الجنة ،في القرآن ، يقدم لهم ما فات دارون في أصل الأنواع :

(هبط آدم إلى هاوية التيه المادي ، إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متدرج عبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا صعداً إلى الاسفنج والرخويات والقشريات ... الخ ، وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول)

• كلا ، لم يبلغ شباب الجيل من البلاهة والغفلة أن يأخذوا هذه التأويلات وأمثالها معها ، مأخذ الجد ،

ولكن الخطر على إيمانهم ، أن تعرضهم لفتنة مجافاة الفهم النبوي للقرآن ، للعقلية العلمية ومنطق العصرية ، فتأخذهم الفتنة بمنطق الجاهلية :

« وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْه ، قل ما يكون لي أن أُبدِّلَه من تلقاءِ نفسي إنْ أتّبِعْ إلا ما يوحَى إليّ إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم • قل لو شاء اللهُ ما تلوتُه عليكم ولا أدْراكم به فقد لبثتُ فيكم عُمراً من

قبلِه ، أفلا تعقلون • فمن أظلمُ ممَّن افترى على اللهِ كذِباً أو كذَّب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون »

(يونس ١٥ : ١٧)

• وخطرٌ على عقلية الجماهير ، أن نخايلها بهذه الألفاظ المضخمة من بدع التأويلات العصرية العلمية ، تمسخ عقليتهم ويختل بها منطقهم ، وتخدر وعيهم بغرور السبق إلى علوم العصر ، فلا علينا أن تتجول « لونا خود » على سطح القمر ، ولدينا آية الانشقاق :

« فلا أقسم بالشفق • والليل وما وسق • والقمر إذا اتَّسق • لتَركبُنَّ طبقاً عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون • وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون »

ولا علينا أن يرتاد « جاجارين » غيابة الفضاء ، بعد أربعة عشر قرناً من نزول آيات الرحمن :

« يا معشرَ الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطارِ السموات والأرض فانفُذوا لا تَنفذون إلا بسُلطان • فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان • يُرسَلُ عليكما شواظ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران • فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان » .

• • •

• الإسلام – كما بينت في مبحث : إنسان العصر بين الدين والعلم – يتجه إلى العقل في ترسيخ الإيمان ، وكتابه المحكم يفصِّل الآيات لقوم يعقلون ويعلمون ويؤمنون ، ويضرب الأمثال لعلنا نتفكر ونفقه ونؤمن . وقد حرر القرآن الإنسان من الأغلال التي تعوق تحقيقه

لآية إنسانيته المكرمة أو تقيد مسعاه الطامح إلى ما سخّر له الله : كل ما في السموات وما في الأرض .

بغير العقل ، لا يتميز حق من باطل ، ولا هدى من ضلال .
وبغير العلم ، لا سبيل إلى تسخير شيء مما في الأرض أو في السماء .

• ولا حرج من الدين ، في أن يقرأ أبناؤنا نظرية التطور وأصل الأنواع في بحوث « دارون » والنظرية المادية في إعلان « ماركس » ومؤلفاته وشروح تلاميذه العلماء وإضافاتهم ،

لكن المحظور أن يقرأوا النظرية مشوهة ممسوخة ، مدسوسة على القرآن باسم العلم والعصرية والإيمان .

وأبناؤنا المسلمون ، يدرسون علوم العصر وأسرار الرياضيات والتكنولوجيا في موسكو ولندن وباريس وادنبره وفيينا وبرلين وبراج ، ويطلبون العلم ولو كان في الصين !

ويحظر عليهم دينهم ، أن يطلبوا أي علم ممن يدعي أنه أحاط بكل شيء علماً ، ووسع علمه السموات والأرض ، والدنيا والآخرة » ..

أذكر أن فقيهاً من علمائنا ، سأله سائل في آية « وما فرطنا في الكتاب من شيء » فهل يعلم من القرآن : كم رغيفاً يخبز من إردب قمح ؟

قال : نعم ، .

واتصل تلفونياً بمخابز « الرمالي » فأعطاه مديرُها الجواب .

قال السائل : لكن هذا ليس من القرآن ؟

ورد شيخنا : بلى ، في القرآن : « واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقد فعلت ..

ومن أهل الذكر نلتمس العلم ،

ونطلب الدين فنرجع فيه إلى الله وإلى الرسول ، في الكتاب والسنة ، وفقه الأئمة وبحوث العلماء ..

لا إلى من يجسر على أن يدعي في أمة متدينة :

(أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أي نبي ، في أي عصر ، وبأية لغة)

• وليس هذا من الدين الذي أعلن ختام الوحي بما أنزل على خاتم النبيين في عصر نزول القرآن ..

فهل هو من العلم ؟

صدقت كلمة ربي :

« إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءَ »

« لا أدرى ، وَاللّـَهُ أعْـلَمُ »

« وما لهم به من عِلْمٍ إن يتبعون إلا الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً . فأعْرِض عمّن تولّى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مَبْلغُهم من العِلْمِ ، إن ربّك هو أعلَمُ بمن ضلّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى »

(سورة النجم)

من أعز ما يقدمه الإسلام إلى المنهج العلمي ، مبدأ « لا أدري » فرضاً على العالم ، أي عالم ، أن يقولها إذا سئل عما لا يدري ..

ويقوم هذا المبدأ أساساً ، على أصل من صريح النص في الكتاب والسنة .

« في كتاب الإسلام ، يتقرر المبدأ أصلاً من أصول العقيدة ، في استحالة أن يحيط إنسان بكل شيء علماً .

ذلك لله وحده ، لا لأي مخلوق ولو كان مَلَكاً من الملائكة ، أو نبياً ممن اصطفاهم الله فبعثهم برسالاته .

سبحانه ، هو وحده الذي « أحاط بكل شيء علماً » « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

الملائكة الأبرار فيما حكى القرآن عنهم :

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »

(البقرة : ٨٢)

ونهى الله تعالى رسوله نوحاً ، أن يسأله ما لا يعلم ، ووعظه أن يكون من الجاهلين :

« فلا تسألنِ ما ليس لك به علمٌ إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين » (هود : ٤٦)

• وكل الرسل عليهم السلام ، لم يكن لهم علم إلا ما تلقوه من وحي الله تعالى ، وأمِروا أن يبلغوه في رسالاتهم . فما كان لأحد منهم أن يجيب بغير : لا أدري ، فيما لم ينزل فيه وحي .

والذي استأثر الله بعلمه ، لم يَعلمه أحد من رسله الأنبياء ، فضلاً عن أن يعلمه غيرهم من سائر البشر .

خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، سأله أحبار يهود عما لا يدري من أمر الروح ، فتلا من كلمات ربه :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وسألوه عما لا يعلم من خبر أهل الكهف وذي القرنين ، فتوقف لم يقل شيئاً حتى نزلت آيات الكهف فيما سألوا عنه ، واقتصر الرسول عليها ، رداً على أحبار يهود .

وسأله قومه عن الساعة ، ولا علم له بها ، فكان الرد من الوحي :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها • فيم أنت من ذكراها • إلى ربك منتهاها • إنما أنت منذر من يخشاها »

(النازعات)

« يسألونك كأنك حَفِيٌ عنها قل إنما علمُها عند الله »

(الأعراف : ١٨٧)

وتساءل طواغيت المشركين ، كما تساءل الكفار من قبلهم ، متى

وعد الله الذي يُنذرهم به الرسل ؟ فرد المصطفى بما تلقى من كلمات ربه :

« قل ما كنت بِدْعاً من الرسل وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحي إليَّ وما أنا إلا نذير مبين »

(الأحقاف : ٩)

« قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاء اللهُ ، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسني السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

(الأعراف : ١٨٨)

« قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيبَ ولا أقول لكم إني مَلَك ، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ... »

(هود : ٣١)

« فإنْ تولّوا فقُلْ آذنتُكم على سواء ، وإنْ أدري أقريب أم بعيد ما توعَدون »

(الأنبياء : ١٠٩)

والإنسان بشر ، عرضة لأن يسهو ويغفل ، وينسى ما تعلمه . ولا عجب فهو ابن آدم الذي علّمه الله فنسيَ ما تعلم ، وحذّره من كيدِ إبليس فاغتر من حيث لا يدري ، وتورط في خطيئة المعصية .

وقد عوتب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في ابن أم مكتوم « الأعمى » :

« وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنتَ عنه تلهّى ،
وما يُدريك لعله يَزّكى ، أو يَذّكّر فتنفعه الذكرى »

(عبس)

• • •

والعلماء يتفاوتون ، لا باختلاف علومهم فحسب ، ولكن يتفاوتون كذلك في العلم الذي تخصصوا فيه ، بمقدار ما يُتاح لكل منهم من رسوخ في العلم الذي تفرغوا له ، ونفاذ في دقيق مسائله ، وفقه لأسراره ، تصدق عليهم جميعا آية يوسف :

« نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ، وفوق كل ذي علم عليم »

من ثم أُمِر المؤمنون بأن يردوا الأمر في الدين إلى الله والرسول : الكتاب والسنّة .

والمسئول فيما لا يدري ، لا يخرج عن إحدى ثلاث :

أن يكذب ، وذلك من أكبر الكبائر . وفي الحديث المتواتر :

« مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار »

أو يرجم بالظن ، وذلك محظور في الإسلام :

« وما لهم به من علم إنْ يتبعون إلا الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً »

(النجم)

فلم يبق إلا الثالثة : أن يقول : لا أدري .

وقد قالها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لأصحابه . فيما لم يكن

يدري من أمور دنياهم .

وقالها في كل ما سئل عنه من أمور دينهم ، قبل أن ينزل بها قرآن.

وأوصى بها العلماءَ من أمته ، حين يتصدون للتعليم ، قال عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس ، مَن علم منكم شيئاً فليقل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن مِن عِلْمِ المرءِ أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم »

ورَوى « عبدالله بن جعفر » حديثاً مرسلاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال : «أجرؤكم على الفتيا ، أجرؤكم على النار »

• • •

وتلقاها عنه تلاميذ مدرسة النبوة ، من الصحابة والتابعين . فقال ابنُ عباس :

« إذا أخطأ العالِمُ «لا أدري» أصيبتْ مَقَاتِلُه »

وسُئِل « أبو بكر الصديق » في كلمة من غريب القرآن ، ففكر رضي الله عنه ملياً ثم قال :

« أيُّ سماءٍ تُظِلُّني وأي أرضٍ تُقِلُّني إذا قلت في كتابِ الله بغيرِ علم ؟ »

وسئل « سعيد بن جبير » عن مسألة في الدين ، فقال : لا أعلم

ثم عقب : « ويلٌ للذي يقول لما لا يعلم : إني أعلم » .

وأعضلتْ مسألة من الفقه على « الشعبي » فقال له أصحابه : إنا قد استحيينا لك لما رأينا منك .

وردَّ عليهم :

« إن الملائكة لم تستحي أن تقول : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا »

• • •

ورسخ المبدأ من العصر الإسلامي الأول ، فكان العالِمُ يُقاس بمقدار ما يقول : « لا أدري » فيما لا يدري . والجاهل مَن لا يقولها . فيَضِلُّ ويُضل الناس . وأجرؤهم على الفتيا ، أقلهم عِلماً .

في الخبر عن « عبدالله بن عمر بن الخطاب » أن رجلا سأله في أمرٍ من الدين فقال رضي الله عنه : لا أدري .

وانصرف السائل وهو يقول للناس من حوله : نعم ما قال عبدالله بن عمر . سئل عما لا يعلم . فقال : لا علم لي به .

ويروون عن « القاسم بن محمد » أن رجلاً حضر مجلسَه العلمي فسأله عن شيء فقال رضي الله عنه : لا أحسِنُه .

فجعل الرجل يقول : إني رفعت إليك السؤال لا أعرف غيرك .

وردَّ عليه القاسم :

« لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي . واللهِ ما أُحْسِنُه »

قال شيخ من قريش وكان حاضراً بالمجلس : « يا ابن أخي ، الزمْها فواللهِ ما رأيتك في مجلس أنبلَ منك اليومَ »

فقال القاسم رضي الله عنه :

« واللهِ لأَنْ يُقطَع لساني ، أحبُّ إليَّ من أن أتكلم بما لا أعلم »

ذكرها الإمام مالك وقال :

« لأن يعيش الرجل جاهلاً ، خير من أن يقول على الله ما لا يعلم . هذا أبو بكر الصديق ، وقد خصَّه الله بما خصَّه من الفضل ، يقول : لا أدري »

• • •

وتوارث الأئمة من فقهائنا العلماء ، هذا المبدأ المنهجي الإسلامي ، فكان مما أوصى به الفقيه « ابنُ هرمز الأصم » تلميذه مالكَ بن أنس :

« ينبغي أن يورِّث العالِمُ جلساءه قولَ : لا أدري . فإن العالمَ إذا أخطأ « لا أدري » أُصيبتْ مقاتلُه »

ووعاها الإمام مالك ، فقال :

« العلم آيةٌ محكمة ، أو سنة مُبيّنة ثابتة ، أو : لا أدري »

ونقرأ معه في تعريف الفقه ، أنه سُئِلَ يوماً في أربعين مسألة ، أجاب في ستٍّ وثلاثين منها بـ : لا أدري .

وجاءه رجل من المغاربة ، موفداً من بعض قومه ليستفتي إمام دار الهجرة في مسألة فقهية . وذكر للإمام أنه أُرسِل فيها من مسيرة ستة أشهر ، من المغرب . فقال «مالك» رضي الله عنه :

– أخْبِر الذي أرسلك أني لا علم لي بها .

سأله الرجل : ومن يعلمها ؟

وأجاب الإمام : مَنْ علّمه اللهُ .

* * *

وليس الخطر في حرمة « لا أدري » أن العالم إذا أخطأها أصيبت مقاتلُه فحسب .

الخطر كل الخطر أن تُهدر حرمةَ العلم فينا ، فيتصدى له مَن يُضلُّ الناس بغير علم .

وهو بذلك يحمل وزر إضلالهم ، مع وزر ضلاله ، بمقتضى تبعة القدوة التي يشتد الإسلام في تقريرها ويوجب الالتزام بمسئوليتها :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم »

(الأنعام : ١٤٤)

« ولا تتبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلُّوا عن سواء السبيل »

(المائدة : ٧٧)

« ليتحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلُّونهم بغيرِ علم »

(النحل : ٢٥)

دون أن يُعفى من العقاب ، مَن غرر بهم الذين أضلوهم بغير

علم . لأن المضَلَّين لن يلبثوا أن يُضِلوا غيرَهم بغير علم ، وتنتقل اللعنة من سلف إلى خلف . حتّى يوم الحساب :

« هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالو النار ،
قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا
ربنا من قدم لنا هذا فزِدْه عذابا ضِعفاً من النار »

« كلما دخلت أمة لَعَنَتْ أختَها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً
قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا فآتِهم عذاباً ضِعْفاً
من النار قال لِكُلٍّ ضِعف ولكن لا تعلمون »

(الأعراف : ٣٨)

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما مِنْ داعٍ يدعو إلى هُدىً إلا كان له مثلُ أجرِ من اتّبعه ، لا يَنتقُص ذلك من أجورهم شيئاً . وما من داعٍ يدعو إلى ضلالةٍ إلا كان له مثلُ أوزارِهم ، لا يَنتقُص ذلك من أوزارهم شيئاً . »

وعن عُقبة بن مسلم ، قال :

« صحِبتُ ابنَ عمر أربعة وثلاثين شهراً ، فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري . ثم يلتفت إليَّ فيقول : أتدري ما يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جِسراً إلى جهنم ».

منذ تلا الرسول عليه الصلاة والسلام في أمته كلمة ربه :

« والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« أجرؤكم على الفُتيا ، أجرؤكم على النار »

دخل مبدأ التحرج من الفتيا وفي الفتيا ، في البيئة الإسلامية .

واشتهرت فينا كلمة الصحابي « ابن مسعود » :

« إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون »

واشتهر عن الصحابة والتابعين ، تلاميذ مدرسة النبوة ، التحرج من الفتيا ، لا يقدمها أحدهم إلا مضطراً .

عن البرّاء التابعي ، قال :

« أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . يُسأل أحدهم عن المسألة ، ما منهم من رجلٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه »

وقال الفقيه « سفيان الثوري » شيخ مالك :

« أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا ، حتى لا يجدوا بداً من أن يُفتوا . وإذا أعفوا منها كان أحبَّ إليهم » .

وكان «النخعي» فقيه الكوفة ، يُسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول لسائله : أما وجدتَ من تسأله غيري ؟

وقال رضي الله عنه : « قد تكلمتُ ، ولو وجدتُ بداً ما تكلمت . وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوء »

ومن مأثور قول الإمام مالك :

« ما كان شيء أشد على علي ، من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام . لأن هذا هو القطع في حكم الله . ولقد أدركنا أهم العلم ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن المسألة : أحلال هي أم حرام ؟ كأنما الموت أشرف عليه »

وذكروا في مناقبه ، أنه « كان إذا سئل عن المسألة ، كأنه واقف بين الجنة والنار »

كما ذكروا مثل ذلك عن ابن سيرين : « إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام ، تغير لونه وتبدل ، حتى كأنه ليس بالذي كان ! »

وقال الإمام أحمد بن حنبل :

« من عرّض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمرٍ عظيم ، إلا أنه قد تلجيء إليه ضرورة »

• • •

من هنا دخل الالتزام بكلمة «والله أعلم» يثبتها علماء الإسلام بعد الذي يقدمون أو يدونون من علم .

وتلقانا « والله أعلم » في تراث السلف الصالح ، فيتندر بها من لا يدرون أنها من تحرج العلماء .

ولعلها التي تحمي الأمة ، من جرأة من يجسر على ادعاء العلم بكل شيء ، وما خشي نبينا عليه الصلاة والسلام على الدين إلا من آفته :

« آفة الدين ثلاث : فقيه فاجر ، وإمام جائر ، ومجتهد جاهل »

• • •

ومضت عصور حققت الأمة وجودها الحضاري بقادة من علمائها . لا يقول أحدهم بما لا يدري ، ولا يتكلم إلا في مجال تخصصه العلمي .

وفي غشية ليل التخلف . لم تفقد الأمة منارها الهادي في الظلام ، ولا عدمت في كل خطوة عن مسراها ، من يصون عقليتها وإيمانها ، بكلمة : لا أدري . والله أعلم .

كلمة لم تخطئها مناهج علمائها في أحلك عصور الظلام ، نوراً في ضمائرهم وأمانة يؤدونها إلى الأجيال من خلفهم .

في مدينة مراكش بالمغرب الأقصى . قرأت فيما قرأت من وثائق تاريخها العلمي في عصر الاستعمار ، إجازتين علميتين ، كتبهما اثنان من علماء الجيل الماضي الفقهاء ، لمحمد بن ابرهيم المراكشي :

الأولى : من الفقيه القاضي « السيد عباس التعارجي »مؤرخة في فاتح ربيع الأنور عام اربعة واربعين وثلاثمائة وألف . وفيها ما نصه :

« قد أجزتك أيها الأخ فيما تجوز لي روايته ....

بشرط التحري ، وأن تقول فيما لا تدري : لا أدري . فمن أخطأها أصيبت مقاتله ...

« وأوصيه وإياى بالتقوى فانها العمل الأقوى . ونطلب من الله تعالى أن يسلك بالجميع مسالك النجاة »

والإجازة الأخرى – في صحيح البخاري ومختصر الشيخ خليل في الفقه – من الشيخ « أبي شعيب الدوكالي » ومن نصها :

« فأجزته فيما تجوز عني روايته من معقول ومنقول وفروع وأصول . بشرط أن يقول : لا أدري . فيما لا يدري . وأن يواظب على الاستفادة والإفادة »

وتاريخها الثالث عشر من شوال سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف .

ومحمد بن ابراهيم المراكشي ، المجاز ، هو شاعر الحمراء الذي أخذ مكانه في التعبئة الوجدانية لقومه ،في إبان الاستعمار . وهو الذي أرّق الاحتلال بقصيدته في رفض الأمة للظهير البربري الذي أراد الاستعمار أن يفرضه على قومنا بالمغرب سنة ١٩٣١ ، بديلاً للشريعة الإسلامية .

* * *

فأين نحن اليوم من : لا أدري ، والله أعلم .

وفينا من يخوض في كل علوم الدين والدنيا وغيب الآخرة !

كأن ليس في الأمة علماء راسخون فيما تخصصوا فيه .

فاللهمّ لا يصل بنا الحال إلى الدرك الذي حذرنا منه نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« إن الله لا يقبض العلمَ انتزاعاً ينتزعه من الناس . ولكن يقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناسُ رؤوساً جُهالاً أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »

* * *

وأعود على بدء فأقول :

إن إنسان العصر يُمتحن بكل الذرائع التي تبررها وطأة الجبابرة وطاغوت المادة ، وبغي السيطرة والاحتكار .

وهو في أمتي ، يمتحن من أجل ذلك كله بذرائع الغربة في وطنه ، وبعملية تشويه ماسخ لعقله وضميره ، لكي يُفتن عن عقيدته التي تنير بصيرته ، وتفرض عليه رفض العبودية لغير خالقه ، وتحمله تكاليف وجوده الكريم الحر .

في هذا التشويه الماسخ ، تتسلط عليه مخدرات من الكهنوت العصري ، تُسقِط وعيه باسم الإيمان والعلم ، فتريه الجن والملائكة في عصر ساليوت

وماربز ، وتعطيه كلمة السر التي تفتح له خزائن علوم الدنيا والدين . وغيب الآخرة ....

وفي غيبوبة اللاوعي ، يُحجب عنه عطاء الدين ؛ ليلقى سمعه إلى ما يقال عن أفيون الشعوب ونقد الفكر الديني ، وتأخذه أصوات الساخرين برسالات الدين ، لا يرون فيها غير « صناديق دُمى ، كانت تصلح لأن تلهو بها البشرية في سذاجتها البدائية » وقد آن لنا أن ننصرف عن « قبور الأنبياء وأكفان الموتى » التي يفسد ريحها مناخ العصر !

والقرآن هو الهدف ...

وزمجرة العدو في حمانا ، توقظ النيام

وتحديات العصر تؤرق الإنسان ..

فأي بديل عن هذا القرآن يقدمه مثقفونا العصريون إلى الأمة : لواءً جامعاً لشملها ، ودليل مسراها في غواشي المحنة ، ونور بصيرتها وضميرها فيما تواجه من تكاليف الجهاد وتحديات العصر ؟

اسألوا التاريخ ، والسلام على من اتبع الهدى ....